في الأدب العربي

القصة المصرية

للأستاذ جيب

أستاذ الأدب العربي في مدرسة اللغات الشرقية بجامعة لندن

جاء ابتداء ظهور القصة كفن من فنون الأدب في مصر متأخراً ، الى حد أنا نلتمس العذر لمن يدرس الأدب المصري . اذا هو رجع الى ما أنتجته من قبل « مدرسة الكتاب السوريين » من الآثار ليبحث عما اذا كان هناك في الأصل علاقة بينها وبين نمو القصة .

وفيما عدا ما يحتمل من أن نجاح القصصيين من السوريين قد شجع الكتاب المصريين على انتاج نوع من القصص يلائم شعبهم ، ستبقى (القصة المصرية) وهي موضوع هذا المقال ، أثناء البحث مستقلة تمام الاستقلال عن تاريخ القصة السورية .

أما المؤثرات الغربية ، فقد ظهرت بوضوح فيما ولي ذلك من الأطوار كما أنها استخدمت استخداما مباشرا ، ولكن على الرغم من هذا فان « آداب التسلية » في مصر قد ظلت لمدة طويلة تعتمد على ما خلفه العرب من النماذج الأدبية العالية ، والنماذج العرفية التي درج الناس عليها . فلما آن لها أن تتحرر من تبعيتها لتلك النماذج . كان تحررها بطيء وبعد تردد ، ومن ثم كان نجاحها في ذلك الاتجاه فردياً موزعا ، ولم يكن نتيجة لحركة تطور مستقيمة .

ونحن في الواقع اذا أردنا أن نتحدث عن « نمو » القصة في مصر ، فلا بد أن نمد في معنى هذا اللفظ « القصة » حتى يشمل شعبة واسعة من فنون الكتابة يربطها جميعاً رباط الخيال القصصي ، وان كان بينها كثير لا يمكننا مطلقا أن نعتبره قصة اذا قصدنا المعنى الحقيقي لهذا اللفظ .

ويعزى تأخر مصر في هذا الميدان . ميدان القصة ، اذا هي قورنت بتركيا والهند — وهما المركزان الأساسيان الآخران للثقافة الاسلامية — الى عدة عوامل أوضحناها في مقال سابق في صدد الكلام عن الأسباب الأدبية . والأسباب التعليمية التي كانت عقبة في سبيل ظهور آداب للتسلية من نوع جديد في مصر . ونستطيع أن نضيف اليوم الى تلك العوامل أن المصريين وجدوا غنية ومتاعا فيما خلفه العرب من آداب عالية متنوعة ، مما لم يكن له مثيل في كلتا اللغتين التركية والأردية [1] . وهناك بعض عوامل محلية خاصة سنعرض لها في شيء من التفصيل في بحثنا هذا ، ولكننا نحب أن نشير الآن الى تلك الحقيقة التي تحوي شيئاً مما سنعرض له . وهي أن تلك الطبقة المحصورة التي تعلمت تعلما حديثاً في مصر ، كانت تستطيع أن تجد بغيتها في الأدب الفرنسي والأدب الانجليزي . ومن أجل ذلك انعدمت في الدوائر الأدبية البواعث التي تشجع على تأليف كتب التسلية باللغة العربية . فلما مست الحاجة الى هذا النوع من الكتب ، كان المسلك الطبيعي الذي سلكه الأدباء هو اقبالهم على ترجمة القصص الفرنسية والانجليزية ، وفضلوا ذلك على أن يقوموا بانتاج أدب قصصي جديد لا يرجون له انتشاراً ، اذ كان ذلك العمل يتطلب منهم خلق فن جديد من فنون الكتابة .

ولما كانت هذه القصص قد ترجمت ترجمة سقيمة ، ولم يراع في اختيارها حالة مصر الاجتماعية ، ولا حالة الثقافة العامة ، ولا الذوق الأدبي في البلاد . فان قبول القراء لها على الرغم من عيوبها ليدل على انه كان هناك شعب يتذوق هذا النوع من الأدب ويقدره حق قدره .

على أن هناك كتاباً يصح اعتباره مقياساً للكياسة والمهارة اللتين ينبغي أن يتصف بهما من يريد القيام بترجمة قصة أوربية ، بحيث يجعلها تلائم ذوق شعب ثقافته اسلامية كالشعب المصري ،

---

[1] Urdu

ذلك الكتاب هو ترجمة عثمان جلال لقصة « بول وفرجيني » فان تلك الترجمة على ما فيها من الاختصار والتصرف فى الجملة ظلت محافظـــة على الروح الأصلية وعلى ما جاء فى الاصل من المعانى . أضف الى ذلك أن استعمال السجع فى عبارات سهلة . ووضع المؤلف بعض المقطوعات الشعرية محل الافكار الفلسفية التى وردت فى الاصل ، قد أكسب هذه الترجمة صبغة عربية . لم توجد مع الاسف فى معظم ما عاصرها أو جاء بعدها من الكتب المترجمة . ويمكننا أن نستشهد على ذلك بالفقرة الآتية : « وما أنت أيتها الصغيرة فلا عذر لك فى السفر . ولا بد من تسليمك للقضاء والقدر ، وأن تطيعى أمر الاقارب وان ظلموا وأن تسلمى لما به حكموا ، فان سفرك وان كان لا أحد يرضاه ، فهو على ما حكم الله . فقد أنزل تعالى فى كتابه العظيم ، على لسان نبيه الكريم : قل لا أسئلكم عليه أجرا الا المودة فى القربى ، وان سفرك ان شاء الله لنعم العقبى ، أفتعصين الله ما أمر ، أم تسلمين للقدر »

وهناك غير هذا الكتاب مئات أخرى بينها عدد ليس بالقليل حرص فيه المترجمون على الأصل الى درجة تختلف قلة وكثرة عما ذكرنا ، ونخص بالذكر تلك التراجم التى قام بها المنفلوطى ، وان كانت ينقصها كثير من مزايا ترجمة عثمان جلال ، على الرغم من براعة أسلوب المنفلوطى . والذى يعنينا فى هـــذا الصدد الكتب المترجمة من أنها كثيرة وأنها صادفت رواجا عظيما .

ونستطيع أن نتبين ميل الكتاب المصريين الى المحافظة على ماخلفه لهم العرب من الأوضاع الأدبية التقليدية . (الا أن يضيفوا اليه بعض العناصر الجديدة) فى تلك القصة التى تعد أول قصة مصرية بالمعنى الذى أشرت الى وجوب اعتباره فى صدد الكلام عن القصة المصرية . وهى « رواية عذراء الهند أو تمدن الفراعنة لمنشئها الضعيف احمد شوقى » عام ١٨٩٧ . وهى من أوائل مؤلفات الشاعر النابه احمد شوقى . ولم توضع هذه القصة على نمط قصص ألف ليلة وليلة أو على طراز قصص السيرة ، وانما وضعت على نمط تلك الأقاصيص الخرافية الشهيرة التى تعرف « بالحواديت »[1] . وقد سار المؤلف فى توسيعها على الطريقة التى تتبع فى « القصص التاريخية » . على أنى أقرر صراحة أن هذه القصة مما لايمكن أن يستسيغه العقل ، من حيث الخطة ومن حيث ما حشر فيها حشراً من المخلوقات الخرافية كالسجرة والعرافين ، مما لاتكاد تخلو منه صفحة من صفحاتها ، ولكنها ورثت عما سبقها من « الحواديت » المشهورة ميـــلا شديداً الى الحركة والمخاطرة فعوض ذلك عليها بعض مساوئها ، واننا لنشعر بشىء من اللذة أثناء قراءة الصفحات التى لم تحشر فيها الخرافيات لانها تعد بين القصص الحى .

أما ماندين به تلك القصة « للقصة التاريخية » فهو طريقة سرد التاريخ فى ثنايا القصة . ولقد تعرضت هـذه القصة لشرح عظمة مصر القديمة . وهى جديرة بالاعتبار من هذه الناحية . على أن خطرها الحقيقى انما يرجع الى أنها كتبت بذلك الأسلوب الفخم الذى قلد شوقى زعامة الشعر فى الادب العصرى . ويعد النثر المسجوع فيها من أفصح ماعرف من هذا النوع ولقد كانت الفقرات تجرى على روى واحد أربع مرات أو خمسا فى غير إملال . وكانت تتخلل هـــذه الفقرات بعض المقطوعات الشعرية الرائعة للمؤلف . وأن الانسان ليأسف على انه لم يتح لهذا الأسلوب موضوع آخر ومواد أخرى غير التى استعمل فيها .

بجانب تلك المحاولة التى قام بها شوقى ، ظهرت محاولة أخرى بعد ذلك ببضع سنوات كانت أبعـــد نجاحا وأعظم أثراً وهى التجاء الكتاب الى ذلك الضرب المعروف بالمقامات . وهى تعد فى نظر من يدرسون الأدب العربى فى العصور الوسطى أقرب ضروب الكتابة فى ذلك الوقت الى القصة بمعناها الحقيقى . ولقد ظلت المقامة تستعمل فى شكلها التقليدى حتى أواخر القرن التاسع عشر . وعلى الاخص على يدى ناصيف اليازجى وعبد الله باشا فكرى . ولكنها كانت فى يدى هذين الرجلين وغيرهما من كتاب مدرستهما مقصورة على الموضوعات القديمة ولم يكن لها بحياة عصرهم غير ارتباط قليل .

ولكن ظهر بجانب هـــذه المقامات نوع آخر لجأ اليه الكتاب فيما طرقوه من الموضوعات وعلى الاخـــص فى النقد الاجتماعى : وأقبل عليه عدد من الكتاب المصريين فأخرجوا طائفة من الآثار الادبية : كانت أحدى المظاهر الخاصة التى امتاز بها الانتاج الادبى فى السنوات العشر التى سبقت عام ١٩١٤

ويعد « حديث عيسى ابن هشام » لمحمد ابراهيم المويلحى (١٨٥٨ ١٩٣٠) أقدم وأحسن تلك المجموعة الجديدة ، بل ان هذا الكتاب فى تصوراته وطريقته ليكاد يصل الى القصة بمعناها الحقيقى . ولقد لجأ المويلحى أيضا فى ذلك الكتاب الى الخرافيات ، لأن الخيط الذى يربط أجزاءه ، هو تجارب أحـــد الباشوات

---

[1] Hawadit ، تراجع مقدمة قصة « الشيخ سيد الهيط » لمحمد تيمور فيها بحث قيم بقلم أحد أساطين المؤلفين فى اللغة العربية . (المؤلف)

الذين عاشوا فى عهد محمد على ، وقد بعث هذا الباشا من مرقدهفهاله ماوجد من الظروف الاجتماعية الغريبة التى لم يألفها فى القاهرة التى استحالت إلى مدينة أوروبية . وبهذه الوسيلة تسنى للمؤلف أن ينتقد فى حوار بتمع حالةعصره ، وأن يقارن ذلكبالماضى مظهرا مافى الحاضر من مساوىء ، أهمها ولع أهلهبتقليد الأوربيين تقليدا مرذولا . على أن هذا الكتاب ، كما لاحظ محمود بيمور ، ينقصه الخواص الجوهرية للقصة . وأعنى بها الخطة البسيطة ، ولكنه فى تصوير الأشخاص قد نجح الى درجة جديرة بالاعتبار .

ولقد أضيف الى الطبعة الأخيرة لهذا الكتاب جزء آخر سمى « بالرحلة الثانية » غيرت فيه المناظر الأولى بمناظر باريس أبان المعرض العظيم عام ١٩٠٠ . وبذلكتسنى للمؤلف انتقاد مساوىء التشبه بالغربيين ، وأوضح معايب المدنيةالغربية لدىمنابعها . ومما هو جدير بالملاحظة أن الباشا لم يرجع ثانية الى قبره ، ذلك الى مثله فى الكتاب مايحملنا على الظن بأن المؤلف قد نسى الفكرة التى بدأ بها كتابه .

ولا يعزى نجاح هذا الكتاب وشهرته الى القصة نفسها ولا الى مغزاها بقدر مايعزى الى براعة الأسلوب والمقدرة على الوصف ، فان المؤلف يقلد تقليدا متقنا الخصائص الحسنة التى يمتاز بها أسلوب المقامة مضافا الى ذلكسهولة حديثة وظرف . ويتخلل عباراته المسجوعة حوار فى لغة سهلة حديثة . ولقد يلجأ المؤلف الى اللفظ العامى الاصطلاحى فيستعمله فى غير تردد ، وذلك على الرغم من أن الحوار نفسه كان يتطرق كثيرا الى عبارات وصفية مسهبة . وكان السجع مزيجا متقنا من القديم والحديث ، مما أكسب الأسلوب طراقة ورونقا ، وجعل القارىء يستمتع بأثر من الآثار الأدبية الحية جدير بأن ينافس آثار المتفلوطى فى الأسلوب مع تفوقه عليها فى عمق الحس وحسن الترتيب .

وتستطيع أن تضيف الى كتاب المويلحى كتابين آخرين ، جرى فيهما صاحباهما على سنة المويلحى فى اختيار طريقة المقامة للكتابة فى النقد الاجتماعى ، وان كانا أقل منه لباقة ورقة . أولهما « ليالى سطيح » لمحمد حافظ ابراهيم وهو أقوى منافس لشوقى فى زعامة الشعر المصرى (١٨٧١ - ١٩٣٢) وظهر هذا الكتاب عام ١٩٠٧ . وخطة هذا الكتاب بسيطة تتلخص فى أن جماعة من الناس كانوا يشكون فى ليالى متوالية مايلاقونه من مساوىء الاحوال السائدة فى مصر ، فيجيبهم على التوالى صوت خفى مبينا أسباب مايعتجون منه من المساوىء فى نثر مسجوع تتخلله بعض المقطوعات الشعرية ، واصفا لهم الدواء . على أن خطة الكتاب تأخذ بعد ذلك فى التغير تدريجا حتى يصير الجزء الأكبر منه عبارة عن محاورات فى نثر مرسل سهل تضيع فيه المعالم الأصلية للكتاب . ولقد قوبل هذا الكتاب بحماس واقبال فى الدوائر الأدبية المصرية [١] ولكن مما تلفت ملاحظتهفى هذا المقام أن أصواتا عالية قد ارتفعت فى ذلك الوقت منددة باستعمال السجع فى مثل هذه المؤلفات [٢] .

أما ثانى هذين الكتابين فهو « ليالى الروح الحائر » للكاتب السياسى والمؤلف المسرحى محمد لطفى جمعة . ولقد سار المؤلف فى هذا الكتاب على طريقة المقامة بالدقة ، دون أن يلجأ الى السجع . ويلاحظ فى كتابه أثر كتاب « المدرسة السورية الامريكية » واضحا خصوصا فى هذا النوع من الأنشاء المعروف باسم الشعر المنثور أو الشعر الحر . أما المتحدث فى هذا الكتاب فهو روح غير مجسمة كما يفهم من اسمه ، وأغلب هذا الحديث فى انتقاد الأحوال الاجتماعية فى مصر ، ولقد أشار زيدان بحق الى جمال هذا الكتاب وفصاحة أسلوبه . وفى نظرى أنه فى هذه الناحية أهم منه فى الناحية الأخرى : ناحية التعمق فى الأفكار التى تعرض لشرحها .

وقبل أن أترك هذه المجموعة المتشابهة أحب أن أشير هنا الى كتاب آخر عظيم الشبه بها وان امتاز منها فى الروح ثم فى الأسلوب الى حد كبير ، ذلك هو مجموعة الفصول التى جمعت تحت عنوان « أين الانسان » لمؤلفها الشيخ طنطاوى جوهرى . ولقد قدمت هذه الرسالة الى المؤتمر الدولى الذى انعقد فى لندن عام ١٩١١ . أما المتكلم فى هذه الرسالة فهو روح سماوية . وأما الحديث فانه يدور حول التقدم العالمى والأخاء البشرى . ولم يلجأ الكاتب الى استعمال السجع . وهذه الرسالة مفخرة للأدب العربى المصرى . وهى جديرة بأن تكون موضوع دراسة خاصة . ولكنى أكتفى هنا بالاشارة اليها لخروجها عن موضوع بحثى .

ويمكننا أن نتبين فى هذه المؤلفات عدة محاولات مجتمعة لايجاد نوع جديد من الأدب ، يسد حاجة جمهور قارىء جديد ، ويتصل بعض الاتصال بمشاكله ونظراته الى الحياة ، بحيث يسهل تناوله ، ويثير اهتمامه ، ويلائم خياله . على أن أصحابها لم يصادفوا نجاحا فى تلك المحاولات لأنها كانت أقرب الى الأدب العالى منها الى آداب التسلية ، فلم يقبل عليها الا عدد صغير من خاصة القراء .

وبدل أن يطرقوا موضوعات جديدة طريقة تسرى عن الجمهور

« البقية على صفحة ١٩ »

١ كالتكاهل ملفت بها القارىء أو كخطوط الفساد على صفحات المرايا .

١ راجع المنار أغسطس ١٩٠٨ والهلال يولية ١٩٠٨ .

٢ المقتبس أكتوبر ١٩٠٨ .